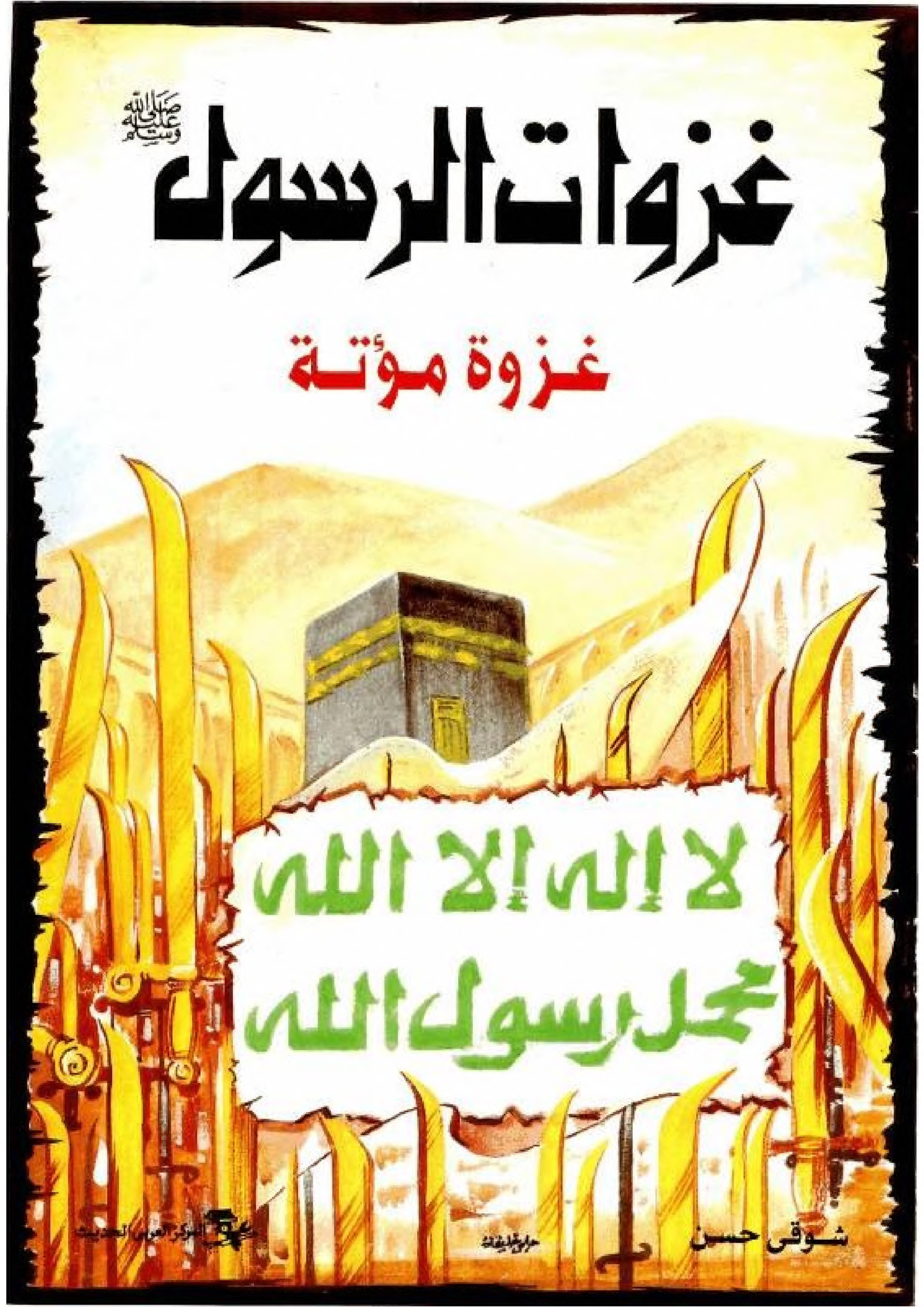

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم
غزوة مؤتة
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
المركز العربي الحديث
شوقي حسن

بعث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم الْحارث بن عمير الأزدىّ بكتاب إلى عظيم بصرى ببلدة فى الشّام تسمّى «بلقاء» يدعوه فيه إلى الإسلام ، وكان ذلك فى السّنة السّادسة بعد الهجرة . وبينما الحارث فى طريقه لأداء مهمّته تعرّض له مالم يكن فى الحسبان .



إذْ خرجَ عليْه في الطَّريق شُرَحْبيل بن عَمْرو الْغسَّانيّ هُوَ ورجَالُه . وكَانَ قيْصر الرُّوم قدْ جعله قائداً علَى الْبلْقاء فأَمَر شُرحْبيل رجـــاله ، فأَوْثقوا الْحَارث بالْحَديد وأَخذُوه إلَى مُعَسْكَرهم ، وهُناك أَمَرهُمْ بقَتْله . هذَا ولَمْ يقتل للـــنّبـــيّ صلى اللّه عليه وسلم رسولاً غيره .





فَلَمَّا نُقِلَتْ أَخْبَارُ مَقْتَلِ الْحَارِثِ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَزِنَ حُزْناً شَدِيداً ، وَلِأَنَّ قَتْلَ السُّفَرَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ أَشَدِّ الْجَرَائِمِ ، وَانْتَظَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى فَرَاغِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِتَجْهِيزِ جَيْشاً قَوِيّاً لِمُحَاسَبَةِ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ عَلَى مَقْتَلِ الْحَارِثِ .

عَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللّه عليه وسلم زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ قَائِداً لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ بَعْدَهُ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِب وَمَنْ بَعْدَهُ عبد اللّه بن رَوَاحَةَ وكَانَ عدد الْجَيْشِ ثَلَاثَةَ آلاف مُقَاتِل. وطَلَبَ مِنْهُم الرَّسولُ صلّى اللّه عليه وسلم أَنْ يَدْعُوهم إِلَى الإِسْلَامِ أَوَّلاً فَإِنْ لم يَسْتَجِيبُوا قَاتِلُوهُمْ.





وَكَانَ الرَّسُولُ صلَّى الله عليه وسلم يُوصيهِمْ قبْل رَحيلهِم قَائلاً : اغْزُوا بِسْمِ اللّه فى سَبيل اللَّهِ ، وَلاَ تغدرو، ولا تقتلوا وليداً أوإمرأة ، وَلاَ مسناً ولا تهدِموا بناءاً . ثمَّ تحَرَّكَ الْجيْشُ الإسْلامِىّ نَحْوَ أعْداءِ اللَّهِ ..

وَبَعْدَ مَسِيرَةِ أَيَّامٍ مِنَ الْمَدِينَةِ وَصَلَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مِنْطَقَةٍ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ تُسَمَّى «مُعَان» فَعَسْكَرُوا بِهَا لِلرَّاحَةِ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ أَخْبَارٌ مِنْ رِجَالِ اسْتِطْلَاعِهِمْ بِأَنَّ هِرَقْلَ قَيْصَرَ الرُّومِ جَهَّزَ جَيْشاً عَدَدُهُ مِائَةُ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ .



وأنَّهُ قَدْ أَعَدَّ نَفْسَهُ تَحَسُّباً لقُدُومِ جيشِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ انْضَمَّ إِلَى قُوّاته مِائَةَ أَلْف آخرين من الْمُشركينَ مِن قبائل لَخْمٍ وجذامٍ والْقَينِ . وأَصبح جيشُ الْكُفَّارِ مِائتى أَلْفِ رَجلٍ.



جلس قواد الجيش الإسلامى يتشاورون فيما بينهم. فقال أحدهم : لم يكن فى حسابنا أن نقابل مثل هذا العدد من جيش الأعداء . وقال آخر ونحن فى بلد و أرض بعيدة عن المدينة المنورة ، فلابد أن نفكر جيداً قبل أن نخوض المعركة.





وبعد ليلتين من التشاور قال أحدهم : نبعث إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نخبره بعدد عدونا ، فإمّا أن يمدّنا بالرّجال أو يأمرنا بالرّجوع .ولكنّ عبد اللّه بن رواحة عارض هذا الرّأي، وراح يحثّ النّاس ويشجعهم على القتال مهما كان عدد الأعداء وقوّة سلاحهم متمنياً الشّهادة في سبيل اللّه.

فتعاهد الْجميعُ على الْقتال حتّى النّصر أو الشّهادة في سبيل الله. ثمّ تحرّك الْجيش الإسلامي نحو أرض الْعدوّ حتّى نزلوا مؤتة وعسكروا بها،وهناك شاهدوا عن قرب جموع هرقل كأنّها أمواج الْبحر،وذلك بكثرة عددهم.



استعدَّ جيشُ المُسْلمينَ للْقتالِ ، واتَّخذوا مواقعهمْ . ثُمَّ صرخَ هرقلُ في رجالهِ يأمرهم بالــــتَّقدُّمِ للْقتالِ ، فلاقاهم جيشُ المسلمين في مؤتة . وكانتْ معركةٌ عجيبةٌ شرسةٌ ، وذلكَ لأنَّ ثلاثةَ آلافِ مقاتلٍ يحاربونَ مائتيْ ألفٍ . فكانَ جيشُ الْمُسْلمينَ يقاتلُ قتالاً مريراً متسلحـــــــاً بالْإيمانِ.



وَكَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَحْمِلُ الرَّايَةَ وَفِي مُقَدِّمَةِ الْمُقَاتِلِينَ يُقَاتِلُ بِضَرَاوَةٍ بَالِغَةٍ وَبَسَالَةٍ وَشَجَاعَةٍ نَادِرَةٍ . وَظَلَّ يُقَاتِلُ وَيُقَاتِلُ فِي صِرَاعٍ رَهِيبٍ . حَتَّى أَصَابَتْهُ عِدَّةُ رِمَاحٍ فَسَقَطَ شَهِيداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ .



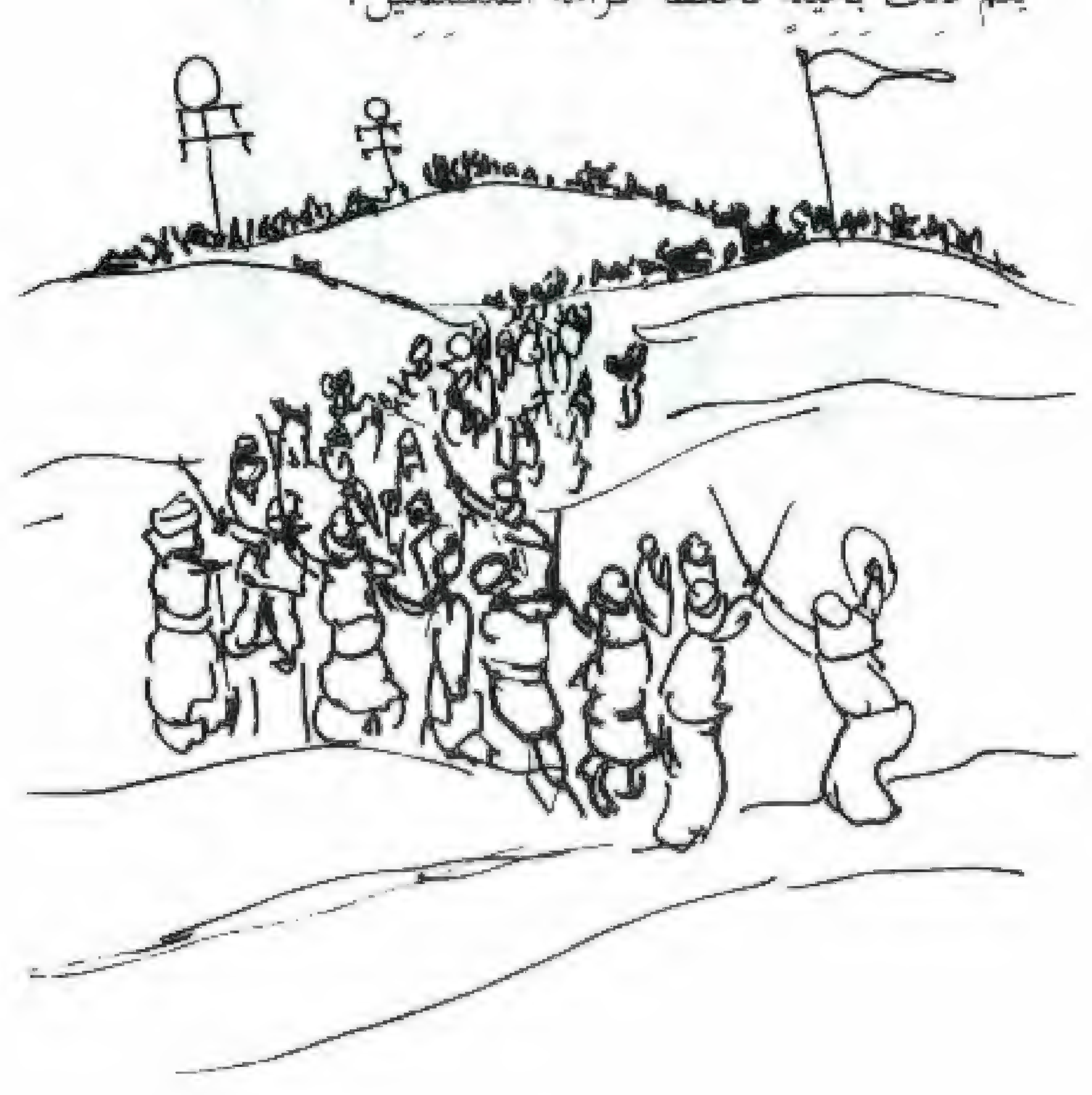
فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ، وتقدم المقاتلين وهو يقول الله أكبر الله أكبر ، واستمر يقاتل حتى قطعت يده اليمنى ، فأمسك الراية بيده اليسرى ، حتى قطعت هي الأخرى ، فاحتضن الراية بعضديه واستمر يقاتل حتى استشهد .

فَأَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ عَبْدُ اللَّـــهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَتَقَدَّمَ بِهَا وَرَاحَ يُقَاتِلُ فِي شَجَاعَةٍ لَيْسَ لَهَا نَظِيـــرٌ مِثْلَهُ مِثْلُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى اسْتُشْهِدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فَأَسْرَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَحْمِلُ الرَّايَةَ قَائِـــــلاً : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ : اخْتَارُوا رَجُلاً مِنْكُمْ يَحْمِلُ رَايَتَكُمْ . فَقَالُوا: أَنْتَ يَا ثَابِتَ بْنَ أَرْقَمَ. فَقَالَ لَهُمْ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، فَاخْتَارُوا رَجُلاً مِنْكُمْ .



فَأَشَارُوا إِلَى خَالِد بْنِ الْوَلِيد ، فَأَسْرَعَ يَحْمِلُ الرَّايَة وَيَتَقَدَّمُ الصُّفُوفَ لِيُدِيرَ القِتَالَ فِي ضَرَاوَة بَالِغَة . وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ فِي الْمَدِينَة وَعَيْنَاه تَذْرِفَانِ الدُّمُوعَ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ مَا حَدَثَ فِي مُؤْتَة وَذَلِكَ : بِوَحْيٍ مِن اللَّه . وَكَانَ يَقُولُ : أَخَذَ الرَّايَة زَيْد فَأُصِيب ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَر فَأُصِيب ، ثُمَّ أَخَذَهَا بن رَوَاحَة فَأُصِيب ، ثُمَّ أَخَذَهَا سَيْفُ اللَّه وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْه .

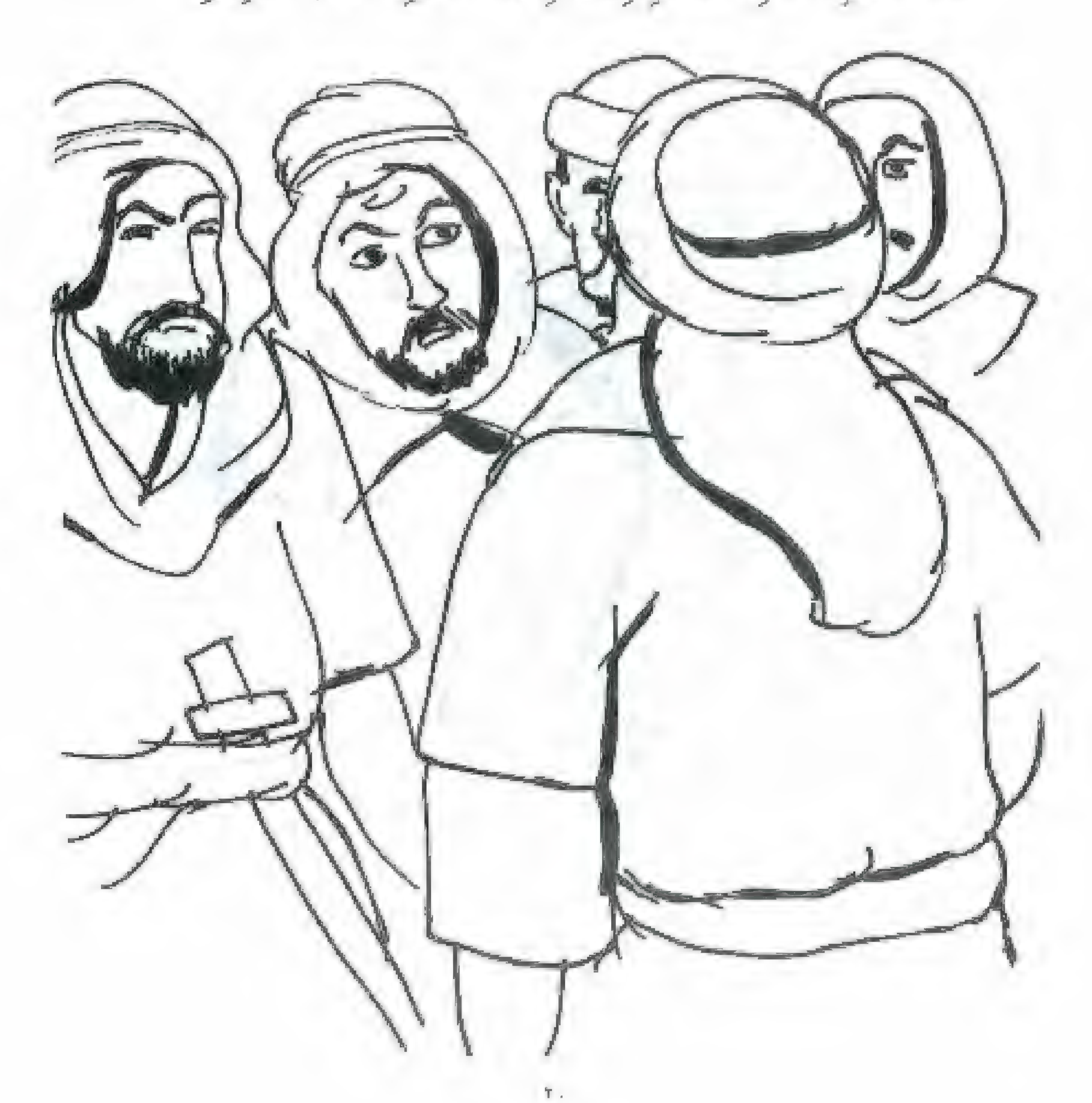
أَدَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمَعْرَكَةَ بِبَرَاعَةٍ فَائِـــقَةٍ وَنُبُوغٍ حَرْبِيٍّ مُتَقَدِّمٍ . وَكَانَ كُلُّ هَمِّهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ بِأَقَلِّ الْخَسَائِرِ الْمُمْكِنَةِ لأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَصْمُدَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ الصَّغِيرِ أَمَامَ أَمْوَاجِ الرُّومِ الْكَثِيفَةِ . فَأَرَادَ خَالِدٌ أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ تَحْفَظُ كَرَامَةَ الْمُسْلِمِينَ.



وَاسْتَطَاعَ خَالِدٌ أَنْ يَصْمُدَ بِجَيْشِهِ أَمَامَ الأَعْدَاءِ وَيُقَاتِلَهُمْ طُوَالَ النَّهَارِ . فَلَمَّا أَتَى اللَّيْلُ رَاحَ يُخَطِّطُ لِخُدْعَةٍ حَرْبِيَّةٍ تُلْقِي الرُّعْبَ وَعَدَمَ الثِّقَةِ فِي قُلُوبِ الرُّومَانِ حَتَّى يَتَرَاجَعُوا دُونَ أَنْ يُفَكِّرُوا فِي مُطَارَدَةِ المُسْلِمِينَ .



اجْتَمَعَ خَالِدٌ مَعَ قُوَّادِ جَيْشِهِ وَرَاحَ يَشْرَحُ لَهُمْ خُطَّتَهُ وَمَكِيـــــدَتَهُ الْحَرْبِيَّةَ ، وَحَدَّدَ لَهُمْ مَهَامَهُمْ فِي الصَّبَاحِ ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ الإِلْتِزَامَ بِهَا وَتَنْفِيذَهَا بِدِقَّةٍ، فَإِنْ نَجَحَتْ كَانَتِ الْخَلاصَ لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جُيُوشِ الرُّومِ الْكَبِيرَةِ.

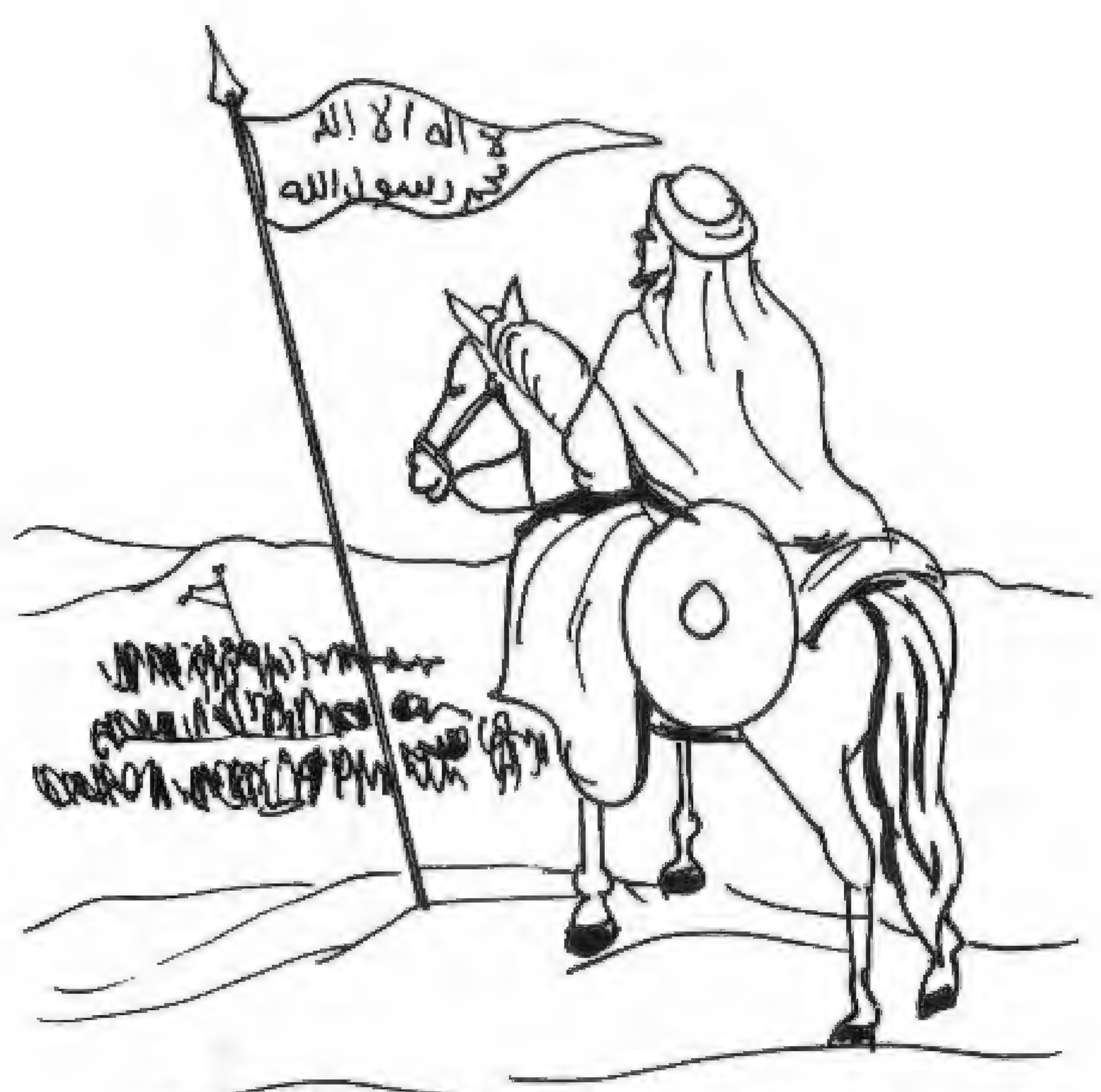




عبأ خالد جيشه من جديد ، وفي الصباح غير مواقعهم ، إذ جعل من كان في الأمام في الخلف ، ومن كان على اليمين جعله على اليسار . وعندما اكتشف الرومان تغير حال المسلمين تهيأ لهم أن عددهم قد زاد بضع آلاف أخرى وظنوا أن هناك مدداً أتى إليهم من المدينة فخافوا ورعبوا رعباً شديداً .

أَبْلَغَ قُوَّادُ الرُّومَانِ هِرَقْلَ بِوَضْعِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْجَدِيدِ. وَقَالُوا : لَقَدْ أَتَى لَهُمْ مَدَداً وَلاَ نَعْرِفُ خُطَّتَهُمْ بَعْدُ فَقَالَ هِرَقْلُ : لاَ تَقْدُمُوا عَلَى عَمَلٍ يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِنَا ، وَإِلاَّ كَانَتِ الْغَلَبَةُ لَهُمْ . فَإِنْ كَانَ لاَبُدَّ مِنَ التَّرَاجُعِ فَلاَ بَأْسَ فَلْنَتَرَاجَعْ، وَاجْعَلُوا فِرْقَةً تُنَاوِشُهُمْ أَثْنَاءَ ذَلِكَ .





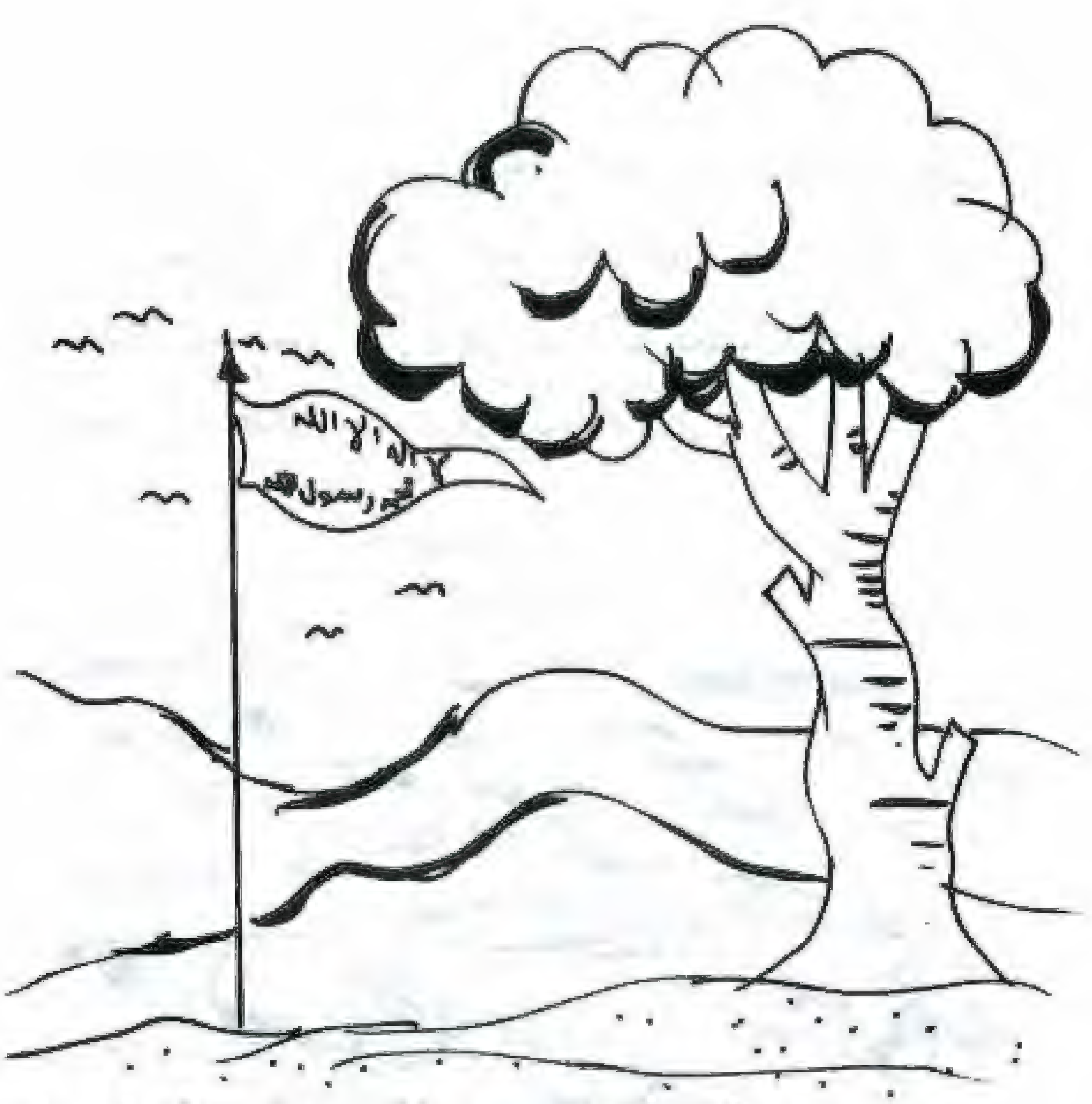
رَأَى جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ حَرَكَةً غَيْرَ عَادِيَّةٍ فِى جُيُوشِ الـــرُّومِ فَاسْتَعَدُّوا لِلْقِتَالِ ، وَتَنَاوَشُوا سَاعَاتٍ . وَكَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيـــدِ فِى ذَلِكَ الْوَقْتِ يُنَفِّذُ خُطَّتَهُ إِذْ جَعَلَ فِرْقَةً مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ تَتَرَاجَعُ بِبُطْءٍ غَيْرِ مَلْحُوظٍ ، فِى حِينِ يُحَرِّكُ فِرْقَةً أُخْرَى وَكَأَنَّهَا تَتَقَدَّمُ لِمَوَاقِعَ جَدِيدَةٍ .

رَأَى ذَلِكَ قُوَّادُ الـــــرُّومَانِ ، فَظَنُّوا أَنَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ يَخْدَعُهُمْ وَيُدَبِّرُ لَهُمْ خُطَّةً لِسَحْبِهِمْ إِلَى قَلْبِ الـــــصَّحْرَاءِ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَثَبَتُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ قَلِيلاً ثُمَّ رَاحَتْ فِرَقُهُمْ هِيَ أَيْضــاً تَتَرَاجَعُ لِلْخَلْفِ خَوْفــاً مِنْ مَكِيــدَةٍ قَدْ تَسُوؤُهُمْ . وَظَلَّتْ هَكَذَا حَتَّى رَجَعَتْ جُيُوشُهُمْ جَمِيعــاً تَارِكِينَ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ .



فَرِحَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ بِنَجَاحِ خُطَّتِهِمْ وَانْسِحَابِ جُيُوشِ الـــــرُّومَانِ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ . فَأَمَرَ خَالِدٌ رِجَالَهُ بِجَمْعِ شُهَدَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ فَكَانُوا اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً بَيْنَمَا كَانَ هُنَاكَ الْمِئَاتُ مِنَ الرُّومَانِ قَتْلَى





كَانَ مِنْ بينِ شُهداءِ الْمسلمينَ زيدٌ وجعفرٌ وعبدُ اللَّهِ مِنْ حاملِي الـــرَّاياتِ . وكَانَ زيدٌ قدْ أَصابتهُ عدةُ رماحٍ وجعفرٌ شاهدوا في جسدِه بضعاً وتسعينَ طعنةً ورميةً بالرُّمحِ ، وعبدُ الـــلَّهِ أَصابتهُ عدةُ طعناتٍ ، ورغمِ ذلكَ كانوا يقاتلونَ حتَّى آخرِ قطرةٍ مِنْ دمائِهمْ .

فَلَمَّا عَلِمَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ فِي أَنْحَاءِ الشَّامِ عَنْ نَتِيجَةِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ تَعَجَّبُوا وَدَهِشُوا كَيْفَ يَقِفُ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ الصَّغِيرِ أَمَامَ جُيُوشِ الرُّومَانِ أَكْبَرِ وَأَعْظَمِ قُوَّةٍ عَلَى الْأَرْضِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؟؛ وَكَيْفَ خَرَجُوا مِنْهَا سَالِمِينَ ؟؛؛



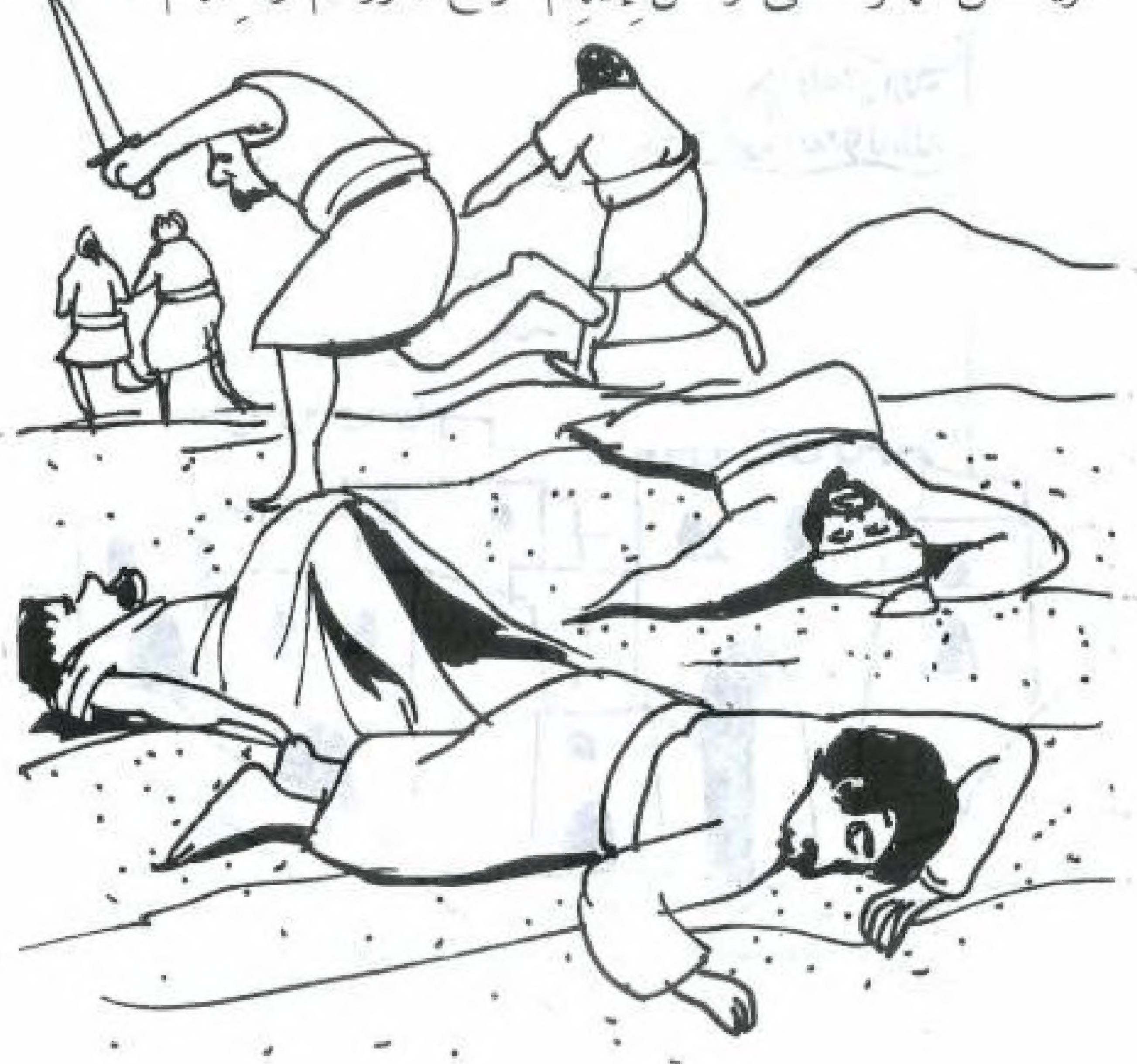


وَاجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ يَتَبَاحَثُونَ فِى أَمْرِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ . فَتَأَكَّدُوا أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّهُ حَامِى الْمُسْلِمِينَ وَمُؤَيِّدُهُمْ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ حَقّاً. فَأَسْلَمَتْ قَبِيلَةُ بَنِى سُلَيْمٍ وَغَطَفَانَ وَذُبْيَانَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقَبَائِلِ الْأُخْرَى .

وَعَادَتْ قُوَّاتُ الْمُسْلمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ قَامَتْ بِهَذَا الْعَمَلِ الْبُطُولِيِّ الَّذِي جَعَلَ الْأَعْدَاءَ يُفَكِّرُونَ مَرَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَقْدِمُوا عَلَى أَيِّ عَمَلٍ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ بِدَايَةَ اللِّقَاءِ مَعَ جُيُوشِ الرُّومَانِ الَّذِينَ انْتَصَرُوا عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ وَفَتَحُوا بِلَادَهُمْ .



وَلَمْ ينسَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم هؤُلاَء الَّذين تعاونوا مَعَ الرُّومَان من قبائل العْرَب فأَرسَل لهُمْ قوَّةً لتأديبهم قادَهَا عمرو بن العْاص. وكان عمرو يسير ليْلاً ويَكمُن نهاراً، حتَّى وصَل إِليْهِم، فراح يغْزوهمْ ويأَدِّبهم.





كَمَا خَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ لِنَفْسِ الْغَرَضِ ،فَانْضَمَّ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ وَشَرَّدُوهُمْ ،فَهَرَبُوا فِى الْبِلَادِ ،وَتَفَرَّقُوا .ثُمَّ عَادَتْ قُفُولُ الْمُسْلِمِينَ فِى سَلَامٍ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ لِتَرْتَفِعَ رَايَةُ الْإِسْلَامِ اللَّهُ أَكْبَرُ ،لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ .

«وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» سورة الحج ـ ٤٠ ـ